حيرة !!

للأستاذ رضوان إبراهيم مصطفى

من أنا ... ومن أنت ياصاحبي ؟!!

ما حياتي ؟ ما مماتي ؟ ما فنائي ؟ ما الخلود ؟!!

ما آمالنا يا صاحبي ؟ ما ماضينا ، وما حاضرنا وما مستقبلنا ؟

ما الحياة ؟!

ما أنا وما أنت إلا ذرات الهباء ، تتذبذب مع تيار الحياة المتدفق من منبع مجهول إلى غاية غير معلومة !!

جئنا إلى الحياة .. لم نعرف كيف جئنا ، ولماذا .. ونذهب كما جئنا ، ولا نعلم إلى أين .. وما مصيرنا !!

وبين مجيئنا وذهابنا تتفتح عيوننا على الحياة لحيرتنا ، وظللنا مشدوهين حيارى ، مبهوري العيون ، فاغري الأفواه .. ولكننا لم نفهم ما نرى ، ولم ندر ما نقول !!

ولمست أيدينا هذه المهود ، فأحسسنا بروعتها فخططنا عليها خطوطاً مستقيمة أو متعرجة ، لم نعرف كيف استقامت أو تعرجت ، ثم تركناها لرياح الجو ، وأمواج البحر ، وذهبنا نحلم وعيوننا مفتوحة ، وننظر إلى الحياة تدور بنا ، وكأننا ندورها ، ثم أحسسنا بها تتركنا وتولي مسرعة ، وكأننا نحن الذين نسرع في الفرار منها .

وكانت أعيننا المبهورة ، وأفواهنا الفاغرة ، وأسماعنا المرهفة ، وأيدينا الممدودة .. تتنفس ، وتسمع وتضطرب ، فتركت فيها الحياة آثارها ، ولكن الوهم يخيل إلينا أن

هذه الحواس هي التي تركت في الحياة آثاراً ... !!

لكن الحياة الغلابة القاهرة استطاعت أن تمحو ما تركناه فيها ، أو أن تطمس فيها ما تركته من معالم سياطها على أديم ظهورنا ، فقد أطمئنت الشفاه ، وأسبلت الجفون ، وأبلت الأيدي ، وبددت المسامع .. فاختفينا من الحياة ، ونحن نظن أن الحياة قد اختفت عنا !!؟

وبين هـذا وذاك رحنا نحلم .. نعم كنا نحلم ، لأننا لم نقو على مغالبة هـذه الحياة الجبارة ، وشعرنا بأن هـذا الكيان العاجز لا يستطيع أن يحاول ، ولا يريد أن تؤثر آثاره ، فتعدل من النواميس ، فلم تطاوعنا ، فسبح الخيال مجنحاً ، يلتمس ما فقدته هذه الكتلة العجيبة التي تدوق الروح وتعبدها ، وحسب الخيال أنه قد استقل بالحقيقة ، فتداعت حوله الأوهام ، وتهافتت عليه الأماني ، مترددة حائرة بين الأمس .. واليوم .. والغد . فأخذ يبني من لبنات العجز قباباً على متن الهواء ، وينزل من أعمدة اليأس خيوطاً للأمل ، ويربط هذه بتلك ، يمسكها من هنا ، ويجذبها من هناك ، حتى إذا أوشكت أن ترسيها على أرض الحقيقة ، تبدت الحياة الساحرة الساخرة ، فأبت الغضب ، وأطارت القباب الوردية الجميلة ، في فضاء الأزلية السحيق ، الى غير معاد !!

وبين الأحلام الناعسة ، والأوهام اليائسة .. انتهينا ، وفي زعمنا أن الحياة انتهت إلينا وانتهت بنا ، وانقطع هذا الشعاع الضئيل الذي كان يربطنا الى محنتها !!

فاذا تركنا لهـذه الحياة ؟! / إلا الذرة الدقيقة المتطايرة من رماد ... في خضم الهواء تندّ ، فتزعم أنها هي التي تدفع الرياح فتصرفها ، وتريد ... أن تعبث بها !! ثم تتمادى في الغرور ، والحق حينما تتركها الرياح — في أوهامها — تسقط على سطح البحر ، فتدعي أنها قد التهمته بنفسها كالرجوم على البحر فأرعبته ، وأحدثت في أعماقه رجفة كرجفة الزلزال !! وتحاول أن تقنع الدنيا بزعمها وغرورها ، ... تدلل على حقها وطيشها ، فتقول : ألا ترون إلى البحر كيف مد تلقى على العطش ؟ قد كان ذلك لما ترفقت فنزلت على أديمه في هوادة ورحمة .. فما بالكم لو قسوت عليكم وعليه ؟ إذن لثار وفار وطغى على أرجاء المعمورة .. وأحدث بها ما لم يخطر على الأفكار من ألوان الدمار !!

وبل للأحلام من حقائق الحياة !! وبل لنا منها حين تصوب الى هـذا الطائر المحلق فاذا هو جثة دامية ، وفرمة بالية ، فعظام نخرة ، ... من هباء تتطاير !!

ذويل لنا من قسوة الحياة !! إنها أمنا ، ونحن بنوها ، ولكنها لا تلدنا إلا لتأكلنا .. تلدنا بطنها ، لتمزقنا أنيابها ، وتطحننا أضراسها ، وتهضمنا أمعاؤها .. فيالها من حيرة باردة الأعصاب !! ويا لنا من ضحايا أبرياء !!

لماذا ولدتنا ؟ ولماذا أكلتنا ؟ أنا لا أدري ، ولا أنت ، وربما كانت هي كذلك لا تدري.

تتابعت الأجيال من قبلنا ، حتى جاء دورنا ، فوقفنا على هذا الوجود ، وتجيء من بعدنا أجيال وأجيال ..

ونحن نتساءل مع الأجيال الغابرة ، والأجيال المقبلة .. فهم يتساءلون ، ونحن نتساءل؟ عن شيء لم يدركه الأولون ، وما أدركناه نحن ، ولن يدركه اللاحقون ..

ما الأمس ؟ ما اليوم ؟ ما الغد ؟

ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما الفناء ؟ ما الخلود ؟

اقبض يا صاحبي قبضة من رمال الشاطىء ، ثم بعثرها مع الرياح المجنونة العاصفة ، على زبد الأمواج الحانقة الثائرة .. ثم حاول أن تجمعها ذرة الى ذرة .. بأعيانها وشخوصها وذواتها ..

إن ذلك لأيسر مطلباً ، وأدنى منالاً من أن تجد صدى لمسائلك الحائرة !! ولكن ما أكثر ما تجد من يلغط بالإجابة ، وما أكثر ما تلقى من يدعي العلم !!

فانصرف — يا صاحبي — تعمك منهم .. عن الأدعياء والمرجفين .. وامض في الطريق المرسوم إلى القدر المحتوم ..

وإلا أورثوك الحيرة ، وخيموك بالحسرة !!